وأن سبب شره وشقائه يعود إلى الغرائز الطبيعية الدنيئة وإلى العيوب والعاهات التي ورثها الناس عن أسلافهم، واكتسبوها من بيئتهم[٥].

والفرق هنا بين النقديين والطبيعيين، أن أولئك يرون أن سبب الداء والفساد يعود إلى المجتمع بالدرجة الأولى، أما هؤلاء فيلحون على الأسباب البيولوجية الوراثية خاصة. ولهذا فإننا نجد كثيراً من الشخصيات التي تمثل كثيراً من الخير والاستقامة والطيبة في روايات الواقعيين النقديين، كشخصية الأمير «ميشكين» و«أليوشا» و«الأب غوريو» و«أوجيني» وهلم جرا، بينما لا نجد عند الطبيعيين سوى حيوانات[٦] سلبية متوحشة، لا تبالي بسفك الدماء، ودوس المقدسات من أجل إشباع غرائزها كما سنرى بعد قليل أثناء عرضنا لبعض أعمال الطبيعيين. وإذا وجدنا بعض الشخصيات التي نشتم منها رائحة النبل أو الشهامة أو الطيبة، في كتابات الطبيعيين فلا بد ألا ننسى أبداً بأن تلك الشخصيات قد وجدت لضرورة فنية معلومة، وهي أن تكون وسيلة لإيضاح قتامة الشخصيات الشريرة، أو أن تكون ضحية، ما دام الكاتب لا يستطيع أن يكشف عن شراسة القاتل إلا من خلال المقتول.

وتبدو لنا هذه النزعة المغرقة في التشاؤم في جل آثار الطبيعيين بشكل صارخ، ففي «الوحش البشري»[٧] لإيميل زولا - الذي يعد مؤسساً لهذا المذهب[٨] - نقابل «روبو» الزوج الذي يرتاب في علاقة زوجته «سيفرين» بحاميها السابق «موران» الغني، فيهددها بالقتل، وتنكر في بداية الأمر ثم تقر بأنه يلاحقها ويضايقها باستمرار، ولكنها ترفضه وتحتقره. وحينئذ يعزم «روبو» على قتله بمشاركتها ما دامت تكرهه.

ويشرع «روبو» في وضع مخطط الجريمة، ثم ينفذه في القطار حيث يذبحه كالخروف. ويبدو لنا لأول وهلة أن الغيرة هي التي دفعت «روبو» إلى القتل، ولكننا حين نتغلغل في قراءة الرواية نجد أن الدافع الحقيقي لم يكن الغيرة، إن «روبو» قتل إرضاء لشهوة القتل، بدليل أنه يتأكد تماماً من خيانة زوجته مع رجل آخر فيما بعد، وهو «جاك» ولا يفعل أي شيء.